مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد06 العدد01 جانفي2023 ص ص 568ـ580
ر س ع و (ISSN): 2602ـ618X / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

ممارسات براغماتية قبل البراغماتية

Pragmatic practices before Pragmatism

آيت أحمد نورالدين♦

جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة noureddine.aitahmed@univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 26/ 07/ 2022 تاريخ القبول: 2023/01/10 تاريخ النشر: 2023/01/31

الملخص باللغة العربية:

تحاول هذه الدراسة التنبيه إلى مغالطة يقع فيها الكثير منَّا بخصوص العقل، فهو أكبر وأهمُّ معجزة منحها الخالق للبشر، وعلى العكس مما تعتقده الأغلبية من أنَّ العقل قد مُنح لفئة مخصوصة فقط من المتميزين والمتفوقين كالعلماء والفلاسفة، بينما حُرم غيرهم، فإننا نرجِّح كفة أصحاب الرأي الآخر القائل أن البشر قد حصلوا على نفس العقل وبنفس القدر، لكنهم يختلفون، وهذا أمرٌ لا ينكره أحد، في الرغبة والإرادة والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يجدونها في الأُسر والمحيط الذي تتم تربيتهم ورعايتهم فيهما. وعليه، فلا مبرر للعجب والدهشة التي تنتاب النَّاس حينما يتفوق البعض، فلو أنَّ الظروف والعوامل ذاتها التي أُتيحت للعالِم المتفوق والحاكم الحكيم، قد أُتيحت لغيره، لَصنع هو أيضا ما صنعه هؤلاء، ودليل ذلك تاريخي: إذ كيف تمكَّنت المجتمعات القديمة بالرَّغم من غياب العلوم والتَّطور التكنولوجي، من إيجاد حلول براغماتية للمشكلات التي اعترضتها واستطاعت مقاومتها والتَّغلب عليها، وأنَّها اهتمّت بعامل المنفعة وفضَّلته على باقي العوامل الأخرى عِلما أنَّها لم تكن تعرف شيئا عن المدارس والمذاهب الفلسفية التي ستركِّز على ذلك لاحقا.

الكلمات المفتاحية: العقل؛ السفوسطائيون؛ أفلاطون؛ البراغماتية ؛ العباسيون.

Abstract: This study attempts to reconsider the misconception and fallacy which regards the mind as being the largest and most important miracle granted by the Creator to human beings. It is also a reaction to what the majority believes that the mind has been granted to a special group only of the distinguished and superior, such as scientists and philosophers. However, other people have been bereft of this gift. Yet the researcher supports the opinion that human beings have, to some extent, acquired the same mind, but they differ, and this

♦ المؤلف المرسل

is not denied by anyone, in the desire and will and the social and economic conditions they find in their families and the environment in which they are raised and nurtured. Accordingly, there is no justification for the wonder and astonishment that people experience when some excel, if the same conditions and factors that were made available to the superior scholar and wise ruler, were made available to other, he would also have done what these people did, and the evidence for this is historical : how did ancient societies manage despite the absence of science and development Technological, from finding pragmatic solutions to the problems it encountered and was able to resist and overcome, and that it paid attention to the factor of utility and preferred it over the rest of the factors, knowing that it did not know anything about the philosophical schools and doctrines that will focus on the later.

Keywords: Reason; Sophist؛ Plato; Pragmatism; Abbasids.

مقدمة:

. إنَّ المتمعن في الطبيعة يدرك أنَّ حركاتها وسكناتها توحي بوجود توجه محدد من قَبل وهدف مسطر تسعى إلى تحقيقه، وأنَّ لا شيء فيها يخضع للعبث أو الصدفة، وكذلك هي أفعال الإنسان، إذ ينبغي أن تكون هادفة قصدية. فالإنسان، قبل القيام بالفعل، يتصور الهدف الذي يقصده، ويدرك الدواعي لفعله والصوارف التي تصرفه عنه في حالة الإقلاع، فينتخب من بين العوامل والدوافع أقواها وينجز العمل استجابة له. ومنذ القدم تصرَّف الناس تحت تأثير وضغط المصلحة، ولم يكن هؤلاء يقومون بأفعالهم لذاتها، بل طلبا لما تحققه وتجلبه من منفعة أو تدفعه عنهم من أضرار، وهذا هو أصل الفكر البراغماتي. ومهما اختلفت تعاريف الفلاسفة حول هذا المصطلح، إلا أنها تتفق جميعا على أنها دعوة للنزول ونقل الفكر إلى أرض الواقع، والبحث عن الآثار المادية الإيجابية المترتبة لهذا الفكر، والاجتهاد في طلب شتى أشكال المنفعة. لكن هل انتظر الناس إنشاء المدارس الفلسفية المعاصرة المُبيِّنة للعوامل المحرِّكة للإنسان أم أنهم اهتدوا إليها بفطرتهم وسبقوها؟ ولأجل حل هذه الإشكالية اعتمدنا المنهج الاستقرائي الناقص المُعتمَد في العلوم التجريبية المعاصرة، والذي يكتفي بدراسة حالات وعينات قليلة ثم تعميم الحكم على الكل وذلك لضيق وقت العلماء وكثرة الظواهر. فلا شك أننا سنجد لهذا الأمر تجسيدا في الواقع، لا حصر له، وسنقف عند المحطات التالية من تاريخ الفلسفة.

1- البراغماتية في الفكر السفوسطائي:

كان في القرن الخامس ق م، عبر المدن والدويلات اليونانية مفكرون أُطلق عليهم تسمية (السفسطائيين)، وهم جماعة من المعلمين المتفرقين، اتخذوا التدريس حرفة يقتاتون منها، فكانوا يرتحلون من مدينة لأخرى يُلقون المحاضرات والدروس على الشباب الثري مُقابل أُجرة يدفعونها لهم، فيعلمونهم أصول وتقنيات النجاح في إدارة النقاش ومن ثمة الفوز على الخصم خصوصا في النشاط السياسي من أجل اكتساب مهارة الإقناع والفوز بمناصب سياسية وحكومية، في ظل الديمقراطية الأثينية المباشرة.

ما معنى الديمقراطية المباشرة؟ الديمقراطية المباشرة، أسلوب ابتدعه اليونان قبل الميلاد لتسيير دولهم الصغيرة الحجم حتى أنهم أطلقوا عليها اسم (دولة المدينة). العاصمة أثينا وحدها كان تِعداد سكانها بضعة آلاف، ومِن أجل تسيير هذه التجمعات الصغيرة سياسيا، اقتصاديا وفي كل نواحي الحياة، وبسبب - قلة عدد المواطنين الذين كان عددهم لا يتجاوز بضعة مئات أحيانا- لجأت اليونان لهذا النمط الانتخابي.

بديهي أن المدينة اليونانية (الدولة) كانت تضم عدة فئات من البشر: العبيد، المقيمين والمواطنون، لكن المواطنون وحدهم مَنْ كان يمتلك حق المشاركة السياسية وباقي الحقوق المدنية كالتملك مثلا، "إن المواطنة تُورَّث، والعضوية في المجتمع الأثيني لا يمكن الحصول عليها إلا بحكم الميلاد، وحتى أثينا في أيام الحاكم **بريكليس** التقدمية سنّت قانونا في عام 451 ق م، يقضي بأنه لا يحق لأحد الحصول على المواطنة الأثينية إلا إذا كان وليد زواج شرعي بين مواطن أثيني ومواطنة أثينية"[1]، بالإضافة للشروط التالية: أن يكون الكاهن شاهدا عليه، أو المكلف المدني، أدى الخدمة العسكرية، لم يُحكم عليه مِن قِبل القضاء، ولم يُطبع على يده اليمنى بعلامة السجن، حتى إذا تقدم إلى المحكمة كشاهِد رفع يده اليُمنى ولم يكن فيها علامة الإدانة لتُقبل شهادته. وما يقوم به الشاهد في المحكمة، في وقتنا الحالي مِن رفع اليد اليمنى، هو ما تبقّى مِن عادة اليونان في تمييز المواطن الصالح مِن غير المواطن، أُضيف له القَسَمْ.

إذن يُستثنى مِن حق التمتع بالمواطنة: الأجانب أو المقيمين، العبيد، الصغار، النساء، الكهول، ويراعى حتى مستوى معيشة المواطن، بحيث لا يُعد مواطنا إلا "

[1] باركر إرنست ، النظرية السياسية عند اليونان، ترجمة لويس اسكندر، د ط، مطابع سحل العرب، القاهرة، 1965، ص ص54، 53.

إذا كان الشخص يتمتع بملكية كافية لسد حاجيات الحياة ليتفرغ للعمل السياسي وما تتطلبه عضوية الجمعية العمومية. "[2] إذن يُستثنى كذلك الفقير الذي يشغله فقره لتوفير قوته، كما يُستثنى الأغنياء الذين يشغلهم ثراؤهم عن النشاط السياسي، لذا قُلنا أن عدد المواطنين لم يكن يتجاوز بضع مئات احيانا، وبإمكان هؤلاء التجمع في ساحةٍ وسط المدينة(Agora) كلهم، والمشاركة مباشرة في النشاط السياسي بأنفسهم بشكل جماعي دون نواب.

أما الممارسة السياسية اليوم، " في ظل الدول ذات التِعداد الهائل، حيث لا يُمكن لكل المواطنين التجمع في ساحة، مهما كانت كبيرة، و اشتراكهم جميعا في اتخاذ القرارات الجماعية في ذات المكان والزمان"[3] لذا فإن هؤلاء ينوبون عنهم ، يجتمعون بدورهم، باسم الشعب الذي انتخبهم، وهذا هو الشكل الثاني للديمقراطية، وهي غير المباشرة المعروفة اليوم بالديمقراطية النيابية.

إذن هؤلاء المواطنون كانوا بحاجة لِمن يُعلمهم كيفية إدارة النقاش، بل والفوز خلاله، لذا اضطر هؤلاء للتعلُّم لدى فرقة السفوسطائية، بحيث إذا حضروا اجتماعا للمواطنين استطاعوا المشاركة في الحوار، وربما الفوز على المرشحين الآخرين الذين هُم خصومهم.

ويُعد **بروتاغوراس**، زعيم هذه الفرقة، وقد اتخذ المبدأ التالي شعارا لفكره: ' إن الإنسان هو مقياس الأشياء جميعا'. يعني أن كل واحد منا هو المؤهل الوحيد للحُكم على الأشياء والقضايا بالصدق أو بالكذب، وذلك حسب إحساساته وانطباعاته. فإن ظهر له أن الموضوع مفيد وله قيمة ما، وذلك تبعا لإحساساته هو، فيحكم عليه كذلك، وإن بدا له عكس ذلك فيحكم عليه كذلك بما يتناسب مع ميوله.

إن بروتاغوراس يعتبر أن " جميع الأشياء التي تبدو للإنسان أنها موجودة فهي موجودة وجميع الأشياء التي لا تبدو لأي إنسان أنها موجودة فهي غير موجودة

[2] مطر أميرة حلمي، الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشكلاتها، د ط ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص329.

[3] يحياوي محمد جمال، حول الطبيعة البشرية والنظم السياسية، د ط ،المعرفة، الكويت، نوفمبر1990، ص179.

أيضا"[4].إذن فمن أجل أن يُعتبر الموضوع أو القضية صحيحة، صادقة ويجب طلبها، فينبغي أن تكون نافعة لصاحبها أو لها آثارا إيجابية في الواقع، وإلا فلا قيمة لها. وفي ذلك روح البرجماتية كلها.

ومِن أجل توضيح قوة البرهنة وكيفية استعمال العقل لدى هذه الفرقة، نقدم نموذجا لعقدٍ أُبرم بين بروتاغوراس وأحد تلاميذه يُدعى آثلوس، و يَنص مضمون العقد على أن يُلقِّن المُعلم تلميذه أصول المحاماة والمرافعة أمام المحاكم، وعند نهاية التعلُّم، يدفع التلميذ ثمن الدروس التي تلقاها مِن أتعاب أول قضية يرافعها التلميذ في المحكمة ويفوز فيها.

لكن آثلوس بدلا من التوجه إلى المحاماة، حسب العقد المبرم، توجه إلى السياسة ولم يدفع للمعلِّم شيئا، لأنه لم يشتغِل بالمحاماة، لكن المعلِّم طالبه بدفع الدَّيْن واستحضره أمام القضاء، وطلب ما يلي: إنه في حال حكمت المحكمة لهُ، إذن فالتلميذ مُلزم بالدّفع، وفي حال أن تحكم المحكمة للتلميذ بعدم دفع الدَّيْن لأنه لم يكن محاميا، يكون التلميذ قد ربِح أول قضاياه ومرافعاته، ومِن أتعابها يدفع الدَّين الذي عليه حسب الاتفاق الأول، إذن فبمنطق المعلِّم السفوسطائي، التلميذ سيدفع في كلتا الحالتين !.

لكِّن دهشتكم ستكون كبيرة عندما تستمعون لمنطق التلميذ الذي تلقى الدروس على يد ذلك المُعلّم، ودافع عن حقه بأنه ليس ملزما بدفع شيء، فطالب المحكمة بأنه لم يشتغِل بالمحاماة، حسب الاتفاق، ولا ينبغي له دفع شيء، فإن حكمت المحكمة له بعدم الدفع، إذن فهو لن يدفع، وإن حكمت عليه بالدفع، يكون قد خسر أول قضية رافع فيها وخسرها، إذن فبحسب منطقه، لا يدفع شيئا للمعلم في الحالتين !!

أعتقد أنني لو كنت قاضيا في هذا الخلاف، لألزمت التلميذ آثلوس بدفع الدّيْن الذي عليه، وذلك لسبب بسيط هو أن التلميذ لم يكسب أصول وأساليب إدارة الحوار ومُغالطة الخصوم فحسب، بل أعتقد أنه تفوَّق على مُعلمه. فلقد أفحمه، ولم يعد سفوسطائيا فحسب بل مُعلماً.

[4] الأهواني أحمد فؤاد ، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، ط 1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954، ص 266.

هذا هو المنطق السفوسطائي، استعمال العقل والمراوغة، وكذا كل الأساليب مِن أجل الخروج من الموضوع منتصرا، وفي أسوأ الحالات، بأقل الخسائر والأضرار. وهذا تمام الفكر البراجماتي.

وبهذا، تكون هذه الفرقة قد دافعت عن مفهوم أو مصطلح شديد الأهمية في العلم المعاصر، هذا المفهوم هو النسبية، ويقابله المطلق. إذن في نظر السفسطائيين، لا ينبغي التشدق بأن النتائج التي يتوصل إليها الإنسان، أو العالِم والفيلسوف، ولا يمكن وصفها بأنها التعبير المطلق والنهائي للحقيقة، بل هي نتائج مقبولة لدى الشخص الذي قام بالبحث والعمل. ويلزم عن ذلك، أنه كلما قمنا بدراسات ما ، وبأدوات ما، فإن النتائج المتوصل إليها لا تُلزم إلا صاحبها، ولا تصدق إلا في زمانها، في حين ناضل الفلاسفة آنذاك: سقراط، أفلاطون وأرسطو مِن أجل إثبات العكس، أي أن هناك حقائق مطلقة، ومِن الخطأ القول بأن النتائج ما هي إلا نسبية.

كان يُنظر، في ذلك الوقت لفكر كلٍ من السفوسطائيين من جهة وللفلاسفة النسقيين من جهة أخرى، على أساس أن السفوسطائيين كانوا على خطأ، فيما كان الفلاسفة أصحاب المدارس(أفلاطون، أرسطو) على صواب، ولكن مع مرِّ الزمن، انقلبت الموازين، فالتاريخ قد أنصف السفوسطائية، ولم يُنصف الفلاسفة العِظام، وتقررت النسبية مبدأ من مبادئ العلم، أما الفكر الذي يدعي المطلق والصرامة في التفكير، وثبات النتائج ودوامها مهما كلف الأمر، هو فكر طوَّت البشرية صفحته ولم تعد تعترف به.

2- البراغماتية في فكر أفلاطون:

إنه معلوم لدى العام والخاص أن **أفلاطون** مُعلم أرسطو، وربما يكون من المعلوم لدى البعض أيضا، أن أفلاطون هو مَنْ أسس المذهب المثالي، حيث لا يعترف للعالَم الحسي الواقعي بقيمة، لأنه دائم التغير وأن القيمة الكبرى فقط لِعالم المُثل، وهو عالَم الفكر الأبدي(الحقيقي الدائم). غير أن تلميذه أرسطو، لم يكن صورة طبق الأصل لمعلمه، بل كان ينتقده ويصحح آراءه دون أن ينقص ذلك شيء من الاحترام والولاء له، وكل ذلك من أجل الحقيقة، ولم يفرض أفلاطون تعاليمه بالقوة على تلاميذه في مدرسته ''

الأكاديمية''، بل كانت الحرية في الرأي والرأي الآخر تحكم العملية التعليمية، وكم كانت هذه العلاقة مُنتجة ومُربحة للبشرية جمعاء وليس للمجتمع اليوناني فحسب.

وهنا تجدر الإشارة إلى هذه السُّنة الحميدة التي انتقلت إلى المجتمع الإسلامي في عصر ازدهاره، وهو أولى بها، حيث لم يكن المعلم يفرض تعاليمه بالقوة، كما أن التلميذ لم يكن مرغما باتباع معلمه. فهذا أبوحامد الغزّالي، وهو في حلقة الشيخ أحمد الراذكاني يتلقى عنه العلوم في مسقط رأسه (طوس)، وفي سنٍ مبَّكر، كتب الغزّالي رسالة علمية، كعادة العلماء والفلاسفة قصد الإجابة عن سؤال، ويسمى العمل بالرسالة، حتى أننا نجد بعض هؤلاء يقال عنهم أنهم تركوا كذا وكذا من الكتب والرسائل، فالغزالي ترك ما يفوق أربعمائة كتاب ورسالة.

فالغزّالي ألّف في العشرين من عمره، '' المنخول في الأصول، '' حيث كانت أول تجربة له عن التأليف، ثم قدمه لشيخه قصد الاطلاع عليه وتقييمه، وكأني به يسأله: يا شيخ قد كتبت هذه الوريقات ولا أعرف إن كانت تصلح للقراءة أم لا، فأنظر ماذا ترى؟ فقال الشيخ الراذكاني: قتلتني قبل موتي، فهلا انتظرت حتى أموت!. وهو يعني بذلك أن الغزّالي هو الجدير بمن يجلس مكان الشيخ المَدرّس.

هذا ما قلناه عن العلاقة بين المعلم والمتعلم التي ينبغي أن تكون على درجة كبيرة من الحرية في تبني الرأي والرأي الآخر، وليس المطلوب من المتعلم، في أي وقت، أن يكون صورة طبق الأصل لمعلمه، لأننا لن نربح شيئا من هذه العلاقة. فإذا كان لدينا معلم، فما حاجتنا لنسخ صور عديدة منه؟ بل كلما تفوق التلميذ على معلمه، كلما استفاد الجميع.

يقول أرسطو عن معلمه: " ومع ذلك فإني لا أنفي أن بحثا من هذا القبيل يمكن أن يكون بالنسبة لنا من الحرج ما دام أن مذهب (المثل) قد وضعه أشخاص أعزاء علينا. ولكن لا شك في أنه سيعلم وسيرى كواجب حقيقي من جانبنا أننا لصالح الحق ننتقد

حتى آراءنا الخاصة، خصوصا ما دمت أدَّعي أني فيلسوف، وعلى هذا فبين الصدق وبين الحق، اللذان هما كلاهما عزيز أنفسنا نرى فرضا أن نؤثر الحق"[5]

هذا في شأن علاقة التلميذ الفيلسوف بمعلمه الفيلسوف، أما في تجلي الفكر البراغماتي هنا، فإنه وعلى الرغم مِن أن أفلاطون أسس مذهب المُثل، واتبعه لحد الآن نصف فلاسفة العالَم، من العرب والغرب، إلا أن أرسطو خالفه وفضّل أن يتبنى مذهبا خاصا به، فصار النصف الثاني من الفلاسفة مِن أتباع أرسطو، لذا يقال أن الفيلسوف لا يمكنه إلا أن يكون أفلاطونيا أو أرسطيا، أما ما تبقى من المذاهب، فهي مجرد اشتقاقات منها، وليست أصلية.

يُلخص فكر أرسطو ومنهجه في نقل الفكر إلى أرض الواقع، الواقع الحسي العيني الذي يؤثِّر فينا، والذي اعتمده علماء المنهج التجريبي أساسا ومُنطلقا لعلومهم التجريبية. إذن فأرسطو لم يُبقِ على مذهب أفلاطون التجريدي الحالِم، الذي يقلل من شأن الواقع، بل على العكس من ذلك طالب أن ينكبّ العقل وينطلق من أرض الواقع ليؤسس علما مفيدا، وهو بالذات ما نجده عند علمائنا المسلمين أمثال الحسن ابن الهيثم وغيره: "ما دام العلم من إبداع العقل والعقل هبة من الله تعالى، فإن مبادئ العقل لا بد أن تصبح مبادئ الواقع أيضا، وتلتجئ العلوم الطبيعية إلى المنهج التجريبي الاستقرائي ثم نحاول تفسيرها بوضع الفرضيات، وإذا تحقق ما فُرض بالتجريب انتقل المطاف إلى القانون العلمي."[6]

كما أننا عندما ننكب لنحلل مؤلف أفلاطون الشهير (الجمهورية)، كمشروع لتحقيق دولته الفاضلة التي حلم بها طوال حياته، نجد بعض النواحي والملامح البراغماتية:

2.-1 البراغماتية الأفلاطونية في السياسة:

[5] أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه من اليونانية بارتليمي سانتهلير، ونقله إلى العربية أحمدلطفي السيد، د ط، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1924، ص181.

[6] الدّفاعي علي عبد الله ، المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ص 93.

يقسِّم أفلاطون سكان جمهوريته بشكل متوازن إلى ثلاث طبقات: العمال الحرفيون، الجند، والحراس، فأما العمال فيقع على عاتقهم توفير الغذاء والمأوى لجميع مواطني المدينة (الدولة) ، الجند لحمايتها، وأما الحراس فهم الفلاسفة لتسييرها. وقصْد الفصل بين الواجب العام والمنفعة الذاتية، بين السلطة التنفيذية والمال، يُمنع الحراس من امتلاك ثروات خاصة: " وليس تحريم المُلك على الحراس تشريعا اقتصاديا ولكنه تدبير سياسي." [7]

إذن فأفلاطون يمنع الحراس، وهم الحُكام الذين يسيرون الدولة من امتلاك ثروات خاصة، وذلك حتى لا تتعارض واجباتهم الحكومية مع ثرواتهم الخاصة وتنميتها. فتقسيمه المجتمع إلى هذه الطبقات بالذات نابع من دافع براغماتي، فيُختار العمال المناسبون ليوفروا القوت والمسكن، الجند الشداد الغلاظ للدفاع عنها، وفي الوقت الذي يشقى فيه هؤلاء وهؤلاء، يحظى هو وأمثاله وينعمون بالحكم وبالتأمل في ملكوت السماوات والأرض. هل بقيت أنانية أبشع من هذا؟.

ومن أجل الحصول على جيل ونسل جيِّد من الحراس أي الحكام، يجعل – أفلاطون- الزواج في هذه الطبقة، إذ الحراس فيهم الذكور وفيهم الإناث أوصلتهم إراداتهم وعزيمتهم إلى هذه المرتبة أو الطبقة، وهي أعلى مراتب المجتمع: " فيعقد سنويا وفي أحسن الأوقات وأسعد الطوالع حفلات دينية يجتمع فيها الحراس من الجنسين، ويوهمهم أن اقترانهم سيكون بالقرعة تفاديا للحسد، والحكام يقصدون في الحقيقة أن يعقدوا لكل كفء على كفئه، فيعقدون زواجا رسميا ولكنه مؤقت، والغرض منه الإنسال على قدر حاجة الدولة وتحسين النسل، ثم يوضع الأطفال في مكان مشترك يُعنى بهم فيه أناس خصوصيون وتأتي الأمهات يرضعنهم دون أن يعرفنهم، فلا يوجد بين الحراس قرابة معروفة، فلا تعرف الأم ابنها أو بنتها وكذلك الرجل." [8]

ويذهب أفلاطون، مِن مُنطلق براجماتي محض، إلى أبعد من ذلك: " فهو يسمح بالتملك والأسرة للطبقتين الأخريين، مع شيء من المراقبة لمنع الزيادة البالغة في

[7] كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، د ط، دار القلم، بيوت، د ت، ص 103.
[8] المرجع نفسه، ص 104.

عدد السكان، وإن وُلد للشعب أو للحراس أطفال في غير الزمن المحدد أُعدموا، كما يُعدم الطفل ناقص التركيب، الوالد فاسد الأخلاق، الضعيف عديم النفع، والمريض الذي لا يُرجى له شفاء."[9]

3- البراغماتية في فكر الحكام المسلمين في العهد العباسي:

لو عدنا لتحليل عوامل تطور وازدهار العلوم والحياة عامة عند العرب المسلين إبَّان عصرهم الذهبي، لوجدنا أن هناك عوامل تظافرت، وأعطت تلك المعجزة، ومن تلك العوامل: أن حكام المسلمين خلال العصر العباسي الثاني كانوا يحملون هذا الفكر البراجماتي، الذي يستثمر دينار ليجني مليار، ومن ذلك:

هناك خطوة استشرافية براجماتية هامة قام بها الخليفة المأمون ت/218هـ، حيث تم إنشاء دار الحكمة التي فتحت أبوابها مشرعة للعلماء والكُتاب والنساخ والمترجمين بسخاء ورحابة. وتعود هذه العناية إلى الصفات الشخصية التي تمتع بها المأمون حيث نال قسطا وافرا من العلم.[10] فكان هذا الخليفة وأبوه من قبل، هارون الرشيد، يدفعون للمترجم وزن ما ترجمه ذهبا.

كان هذا الخليفة نفسه يوفد البعثات العلمية إلى الهند وفارس وغيرها، وكانت جزية الدول المنهزمة كتبا بدل المال:" جعل الحصول على كتب الفلسفة والعلوم في انتصاراته الحربية شرطا من شروط وقف القتال وجزءً أساسيا من غنائم الحرب كما فعل سنة 830 م بعد انتصاره على تيوفيل ملك الروم إذ أرسل وفدا اختار ما شاء من كتب الفلاسفة وجاء بخمسة أحمال منها فقبِل تيوفيل ذلك وعدّهُ مكسبا كبيرا له، أما المأمون فعدَّ ذلك نعمة عظيمة عليه."[11]

إذن فالمَلك الروماني قدَّر أن الكتب أرخص ثمنا لافتداء نفسه وبلده من المال، فيما قدَّر المأمون أن الكتب التي حصل عليها أغلى وأثمن بكثير من المال، على

---

[9] المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

[10] الشيباني عمر التومي ، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، د ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990، ص65.

[11] فروخ عمر ، تاريخ العلوم عند العرب، د ط، دار العلم للملايين، بيروت، 1970، ص 114.

اعتبار أن المال كان متوفرا، فيما كانت الكتب النفيسة مفتقدة، خصوصا إذا وجدت تلك النفائس مَنْ يُقيّمها.

4- البراغماتية في الفكر الاشتراكي:

لقد ظلت الفلسفات القديمة، ولمدة طويلة، تبحث مواضيع مجردة وبعيدة عن الواقع، وظلّت تصف أحوال مجتمعات خيالية يحلم أصحابها بتحقيقها، ويضعون شروطا تعجيزية لتحقيق هذه التجمعات السعيدة من جهة، ومن جهة ثانية، ظلت هذه الفلسفات متصارعة، تنقد بعضها البعض الآخر، ولا شيء من كل ذلك تحقق سوى هدر الجهد والوقت. في مقابل ذلك نادى الفيلسوف الإنجليزي بنظرة براغماتية جديدة:" فلقد وجد العمال مدافعا عن قضيتهم في شخص روبرت أوين الذي كان قد أدخل في مصانع النسيج الخاصة به، في نيولانارك، أسسا جديدة كل الجدة لمعاملة العمال. فكان أوين رجلا يعتنق آراءً أخلاقية رفيعة، وأعلن أن الاستغلال غير الإنساني للعمال الذي كان سائدا عندئذ، خطأ. وقد أثبتت ممارساته أن من الممكن إدارة عمل اقتصادي بربح مع دفع أجور مجزية للعمال ودون أن يشتغلوا ساعات زائدة عن الحد".[12]

ولا تفوتنا، هنا فرصة التعريف بهذا الشخص، فهو، روبرت أوين فيلسوف اشتراكي حالِم شارح للفكر الاشتراكي الإنجليزي، وُلد عام 1771، من أسرة حرفية، بدأ يكسب عيشة منذ العاشرة، أغناه الله تعالى، وصار صاحب أموال، فأدار شركات كبيرة، وكان ينتقد الرأسمالية المستغِلة ويقف إلى جانب العمال، توفي عام 1858م. فهذا الرجل يمثل نموذجا حيا للإنسان، فهو براجماتي العقيدة والسلوك معا، فقد آمن بفكرٍ وعمِل على تجسيده على أرض الواقع، إذ أن مبادئ الاشتراكية التي يؤمن ويحلم بها، عرفت معه طريقا إلى الواقع، ولم يتنكر يوما لمبادئه، عكس الكثيرين ممن يحملون مبادئ ومُثُل، لكنهم، حتى وإن كانت الفرصة سانحة لتجسيدها، فإنهم يترددون، تماما مثلما " هو شأن مبدأ التضحية ، فهو خدعة تفرضها الطبقة الحاكمة وهي تنتظر مَنْ يضحي من أجلها وهي لا تقوم بأية تضحية. "[13]

---

[12] المصدر نفسه، ص 166.

[13] راسل برتراند ، حكمة الغرب، مرجع سابق، ص 161.

إذن لو تأملنا مليا صاحب هذا الفكر المليء بهذه القيم والأخلاقيات العالية، قلنا عنه أنه براجماتي معتدل، وهذا ما نحاول تبريره من خلال هذه الدراسة، وصحيح أن البراغماتية كما تنادي وتطبقها الولايات المتحدة الأمريكية متوحشة وبلا ضمير، لكن يمكن بقليل من الارادة والتنازل، بلوغ براغماتية معتدلة.

5- البراغماتية في العلاقات الدولية:

إن في ممارسات بعض الدول في وقتنا المعاصر ملامح وإيمان بالروح البرجماتية. فالولايات المتحدة الأمريكية قد أدركت منذ زمن مُبكر أن في الدول المغلوبة على أمرها طاقات وخامات بشرية إذا سمحت لها الفرصة الجيدة والظروف المؤهِلة، تفجرت وأنتجت دُررا. ولأجل ذلك، فسفاراتها عبر العالم تفتح فرصة الهجرة القانونية إليها ضمن إجراءات انتقائية، فتختار من كل بلد حوالي ألف مهاجر ومهاجرة أكفاء تتوفر فيهم كل ما يتمناه المجتمع، وهم كما قال الشاعر:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسِلا فارسل حكيما ولا توصه.

بعد حلول هؤلاء في الأرض الأمريكية، تتفاعل قدراتهم الوراثية الكامنة فيهم مع المحيط المُهيّء، فيظهرون وينبتون بسرعة، وهم بالنسبة لمن لا يعرف مُعاناتهم وحرمانهم في دولهم، يقول أنهم يظهرون كالفطر، فيكون منهم العلماء، الأطباء، وكامل التخصصات، بل كثيرا ما يتفوقون على الأبناء المحليين، ويكبر عطاؤهم كلما طالت إقامتهم فيها وكلما أحاطوا بكل عوامل المحيط.

لو حسبنا هذه العملية بمصطلحي: النفقات والأرباح، نجد أن الدولة المستقبِلة (أمريكا)، أنفقت دُريهمات قليلة، لكن ربحت المليارات. وهذا ما يُفسر ويبرر نجاحها المنقطع النظير. تماما كما تفعل الفِرق الرياضية الكبرى في العالم، عندما تُنفق الملايين لاستقدام لاعبين من دُولهم أو أنديتهم، لكن كم تربح من جراء استقدامهم؟ أعتقد أن هذا الفكر هو الذي سيحكم الفترات القادمة للبشرية ويُنتج برامج ومشاريع تطورها.

الخاتمة: نخلص في النهاية إلى القاعدة القائلة إن الواقع يسبق التنظير. بالفعل، فإذا اعتبرنا المؤسسَيْن الأساسيين لمذهب البراغماتية هما: شارل بيرس (1839/1914) ووليام جيمس (1842/1910) ، نجد أن الممارسات البراغماتية في الواقع كانت مألوفة بين البشر،

وتسمى هذه القاعدة في علم النفس المعاصر، قاعدة عدم التناسب بين الفعل والفكر ، حيث يسبق الفعل الفكر دائما، وواضعها هو العالم السويسري إيدوارد كلاباريد. وبالفعل، فهذه القاعدة لا تنطبق على موضوع دراستنا فحسب، بل على كامل السلوك البشري، إذ أنك تجد الناس — تحت دافع ظروف معينة- يضطرون لإبداع حلول لمشكلاتهم من أجل الحفاظ على البقاء، دون القدرة على تفسير ذلك نظريا أو تقنينه، إلى أن يأتي العلماء بعد فترة ويكتشفون القانون النظري الناظم لذلك الفعل.

كما نخلص في نهاية هذا البحث لتأكيد الفرضية التي انتخبناها وهي القول بأن البشر يولدون مزودين بنفس القدرات، ولا مبرر لمن يُشجع نظرية التفاوت أويقف إلى جانبها، إلا أنه ينحاز ذاتيا لفكرة التفاوت لحاجة في نفسه. وهذا ما نجده لدى الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت الذي اعتبر أن العقل أكثر الأشياء عدالة بين البشر ، وإنما يُبرر الاختلاف فيما بينهم إلى طريقة وكيفية استعمال كل واحد منهم لعقله، أما بالنسبة لأولئك الذين اهتدوا إلى الأفعال وسبقوا العلماء المنظرين، فيحق أن نطلق على تصرفاتهم : ممارسات براغماتية قبل البراغماتية.

الهوامش والمراجع:

أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه من اليونانية بارتليمي سانتهلير، ونقله إلى العربية أحمد الأهواني أحمد فؤاد ، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، ط 1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954.

باركر إرنست ، النظرية السياسية عند اليونان، ترجمة لويس اسكندر، د ط، مطابع سحل العرب، القاهرة، 1965.

الشيباني عمر التومي ، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، د ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990.

الدّفاعي علي عبد الله ، المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981.

فروخ عمر ، تاريخ العلوم عند العرب، د ط، دار العلم للملايين، بيروت، 1970.

كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، د ط، دار القلم، بيوت، د ت.

لطفي السيد، د ط، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1924.

مطر أميرة حلمي، الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشكلاتها، د ط ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.

يحياوي محمد جمال، حول الطبيعة البشرية والنظم السياسية، د ط ،المعرفة، الكويت، نوفمبر1990.